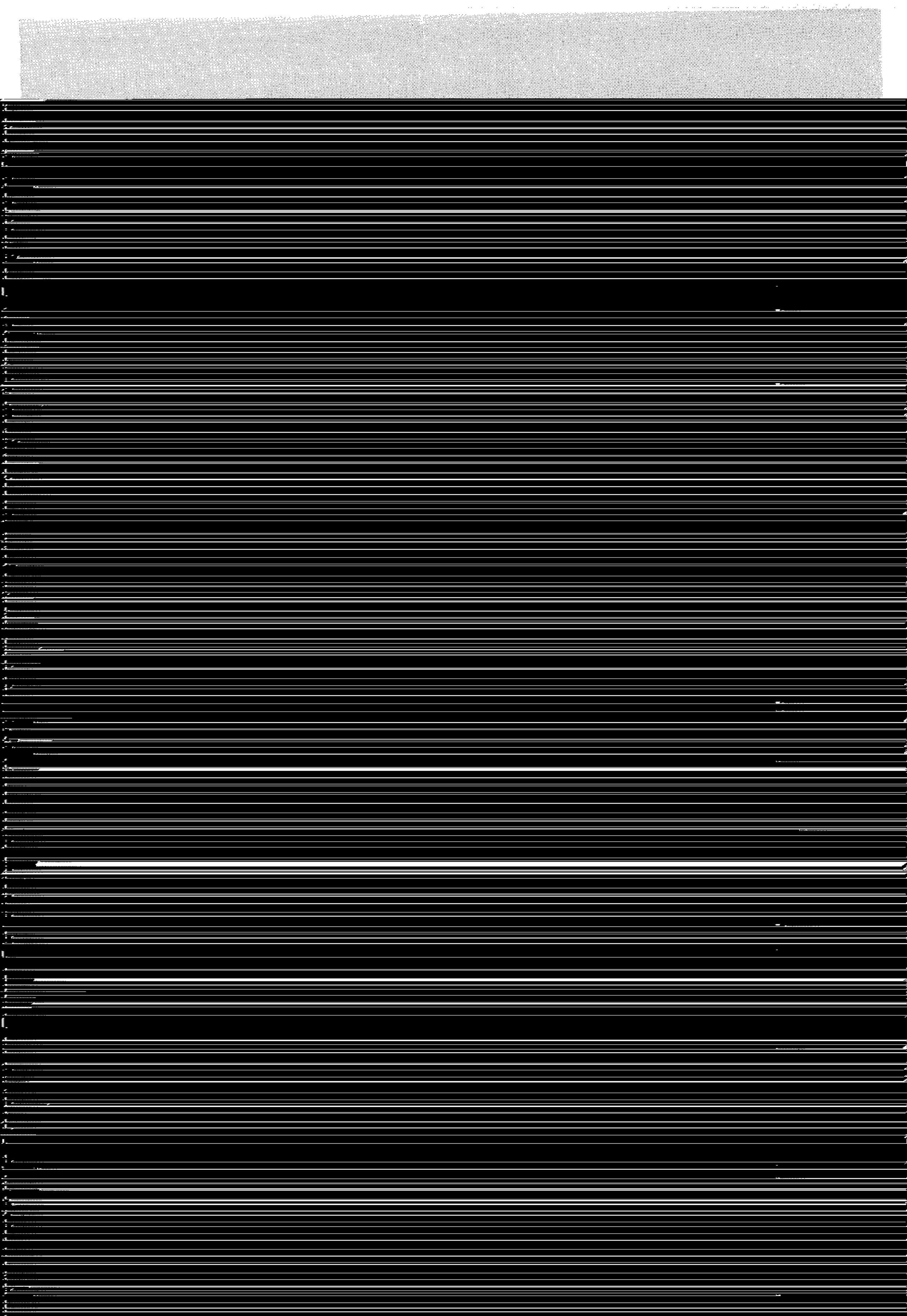


الغزو البرتغالي للبحرين

قادة السلطان مقرن.. فانهزم الجيش

بقلم: نونو. بى. سلفا

هذه الصفحات هي عن الغزو البرتغالى للبحرين وقد سبق للوثيقة ان عالجت الموضوع فى اكثر من بحث فى اعدادها السابقة. ولكن اهمية هذه الصفحات تأتى من ان كاتبها باحث برتغالى وهذا مكنه لمعرفته بالبرتغالية من الاطلاع على كثير من المصادر التى كتبت بهذه اللغة عن الموضوع كما ان اهميتها تأتى من ان الكاتب حرص على ان يذكر تواريخ الحوادث بالسنة والشهر واليوم فى بعض الاحيان وهو شىء فى غاية الاهمية بالنسبة لأى باحث يحاول ان يعيد طرح الموضوع.

« الوثيقة »

البوكرك بغزو البحرين لكن لم تكن لدى البوكرك قوات كافية لهذا الغرض ولم يرد البوكرك تشتيت قواته عبر مساحة واسعة فتأجل تنفيذ اوامر الملك

الاتصالات الاولى

بعث البوكرك فى هذه الاثناء بابن اخيه بيرو دى البوكرك Pero de Albuquerque بمهمة القيام بدورة استطلاعية الى البحرين فى شتاء

١٥١٤م.

وفى ١٥١٥م (فى شهر اكتوبر) اثناء وقوف البوكرك فى هرمز بعث حاكم البحرين برسول ومعه خيول هدية له. وبقى المبعوث البحرينى فى هرمز لمدة شهر واعطاه البوكرك ١٠ أشرفى وكميات من الارز والحرير.

وبعد توطيد دعائم البرتغاليين فى هرمز ووفاة البوكرك فى ديسمبر ١٥١٥م رفض حاكم البحرين الجديد مكرم (مقرن) ان يدفع الخراج كالمعتاد لحاكم هرمز وهكذا خسر رئيس شرف، حاكم هرمز اكثر من ٥٠٠٠ اشرفى وهو المبلغ الذى كانت تدفعه البحرين وبمساعدة من الاتراك، أنشأ مكرم (السلطان مقرن) اسطولا من الزوارق وهاجم واحتجز بعض السفن التي كانت في طريقها الى البصرة من هرمز.

لقد كان رفض حاكم البحرين دفع الخراج لهرمز من جهة والهجمات التى تعرضت لها السفن فى الخليج من جهة اخرى دافعا لاصدار الاوامر من قبل الحاكم العام البرتغالى فى الهند آنذاك، ديوجو دا سلفيرا لاحتلال البحرين وضمها الى مملكة هرمز.

المحاولة الأولى

غادر اسطول صغير فى ١٥٢٠م هرمز تحت قيادة جومز دى سوتامايور Gomes de Soutomaior لفتح البحرين ومعه ٣ سفن برتغالية و١٢٠ بحارا و٤٠ سفينة صغيرة ذات مجاديف لملك هرمز وفيها ١٢٠٠ جندى وبعض الخيول. ولسوء حظ المهاجمين هبت عواصف شديدة فور مغادرة الاسطول وفرقت السفن ومعظمها رجع الى هرمز. ولم تصل البحرين الا سفينة للقبطان البرتغالى ومركب مجاديف واحد وفيه حصانان. انتظر القبطان ١٣ يوما لتتصل به السفن الاخرى ولكن كان الانتظار دون جدوى فقرر القبطان ان ينزل الى الشاطىء ومعه الخيول وستة جنود برتغاليين مع البنادق و٦٠ جنديا من هرمز. تقدم القبطان الى داخل الجزيرة لمسافة ميلين دون مقاومة ثم رجع الى سفينته وعاد الى هرمز.

لقد كانت السهولة التى واجهت نزول جومز دى سوتومايور على الشاطىء وتقدمه داخل الجزيرة بسبب الصدفة ذلك لان السلطان مقرن كان قد ذهب الى مكة المكرمة وترك وراءه والد زوجته حاكما على البحرين واخذ معه الاعيان والاشراف لانه لم يكن يثق بهم ولم يرغب فى تركهم على الجزيرة وهو فى الخارج لهذا السبب لم يجد القبطان اية مقاومة على الجزيرة ولولا العواصف لكان احتلال البحرين امرا يسيرا. وعندما رجع السلطان وعلم بالمحاولة البرتغالية اتخذ التدابير لدعم الدفاع عن البحرين وذلك بجمع المؤن والاسلحة والبارود والمدافع.

وفى مايو ١٥٢١م اصدر ديوجو لوبيز دى سكويرا الحاكم العام البرتغالى

أوامره الى ابن اخيه انطونيو كوريا بفتح البحرين وتم تشكيل اسطول جديد ومعه ٤٠٠ جندى برتغالى و٧ سفن وكان عدد الجنود والبحارة التابعين لهرمز ٣٠٠٠ يركبون فى ٢٠٠ سفينة بالمجاديف. غادر الاسطول هرمز فى ١٥ يونيو لكن العواصف شتتت السفن ولم يصل انطونيو كوريا الى البحرين حتى ٢١ يونيو ومعه بعض السفن فقط.

سبق لمقرن ان حصن الدفاعات بحشد ١٢٠٠٠ جندى كما بنى حائطا عريضا مصنوعا بالطين وجذوع النخل امام المدينة على الشاطىء وفيه فتحتان او ٣ مؤدية الى البحر وقد اغلقت هذه الفتحات فور رؤية البرتغاليين. قسم الحائط الى ثلاثة اقسام ووضع كل قسم تحت قيادة قائد ومعه وحدة للمدافع. اضافة الى ذلك اقيمت موانع اخرى وخنادق حوله.

نزل البرتغاليون والهرمزيون على الشاطىء فى ٢٧ يوليو ١٥٢١م فى تشكيلاتهم وهاجموا السور وتسلقوا الحائط فانسحبت قوات مكرم (السلطان مقرن) ولجأت الى المدينة حسب مخطط مدروس من قبل. ظن البرتغاليون أنهم انتصروا فعلا واسرعوا نحو المدينة لمطاردة الجنود. لم يكن انسحاب مكرم (السلطان مقرن) الا خداعا فقامت قواته بهجوم مضاد وحاصرت البرتغاليين بين المدينة والحائط الخارجى. ودار قتال عنيف بين القوتين وكان موقف البرتغاليين صعبا جدا بين كماشة جنود مكرم من جهة والبحر من الجهة الثانية.

واجبر الحر والتعب الجانبين على وقف القتال وانتهز الجيشان هذه الفرصة لاعادة تنظيماتهما من جديد. فرتب جنود هرمز جماعة من ٢٠٠ من رماة السهام مهمتهم رمى قادة مكرم فقط. فلما تجدد القتال قتل قادة جيش مكرم بما فيهم القائد العام ايضا. وتولى مكرم القيادة بنفسه وقتل الفرسان اللذين ركبهما على التوالى ثم جرح فى ساقه مما ادى الى انصرافه من ميدان القتال. اصابت البلبلة جيش مكرم لغياب القادة من ميدان القتال فجأة وبدأ الضعف فى صفوفه.

دخل البرتغاليون الى المدينة واستولوا على البحرين. احتل انطونيو كوريا القصر الملكى الواسع. ونقل مكرم الى احد الجوامع خارج المدينة حيث توفى بعد ٣ ايام بينما كان انصاره يستعدون لنقله الى القطيف على ساحل الجزيرة العربية.

وطبقا للمصادر البرتغالية التاريخية استمرت معركة البحرين لعدة ايام. بدأت المعركة فى ٢٧ يوليو ومن المحتمل ان البرتغاليين احتلوا البحرين فى اواخر يوليو. مكث انطونيو كوريا فى البحرين حتى منتصف اغسطس ١٥٢١م ثم رجع الى هرمز بعد ان ترك مفرزة من جنود هرمز تحت سلطة رجل عربى مسن اسمه

بقاط»

عقب عودة انطونيو كوريا الى هرمز اصدر الحاكم العام الاوامر بانشاء مكتب تجارى برتغالى فى البحرين وارسل جووو بوتو (Joao Boto) كرئيس المكتب وانطونيو ابل كمسجل ومعهما ستة او سبعة موظفين برتغاليين

تمرد نوفمبر ١٥٢١م

وعقب فتح البحرين تولى البرتغاليون ادارة الجمرك تحت أوامر الحاكم العام وانتقلت السلطة ليدهم فى هذا المجال من موظفى هرمز وقد ادى هذا الاجراء اى سخط كل من ملك هرمز والمحافظ اللذان خسرا مصدرا كبيرا للدخل الشخصى فدبر المحافظ تمردا ضد البرتغاليين فى عدة اماكن من الخليج فى وقت واحد.

وقع التمرد فى نوفمبر ١٥٢١م فى كل من هرمز ومسقط وصحار والبحرين. وقتل رئيس المكتب والبرتغاليين الآخرين فى البحرين ولم تعد البحرين الى السلطة البرتغالية حتى ١٥٢٣م بعد ان اخمد التمرد فى الاماكن الاخرى بالخليج.

ثورة ١٥٢٩م

رفع البرتغاليون مبلغ الخراج الذي كان على هرمز ان تدفعه لهم من ٦٠,٠٠٠ اشرفى الى ١٠٠,٠٠٠ اشرفى كذلك رفع مبلغ الخراج الذى كان على البحرين ان تدفعه الى هرمز مماد ادى الى رفض حاكم البحرين رئيس بربادم دفع هذا المبلغ الى هرمز.

فى يوليو ١٥٢٩م أرسل الحاكم العام نونو دا كنها اسطولا صغيرا من ٤ سفن تحت قيادة بلكور دى سوزا تواريس لالقاء القبض على رئيس بربادم وعين فى مكانه امير ابى نيز الذى كان يثق به محافظ هرمز، علم رئيس بربادم الهدف من مهمة سوزا تواريس فلجأ الى القلعة التى كان يحميها ٨٠٠ جندى ورفض الاستسلام. لم تكن لدى سوزا تواريس قوة كافية لمقاومة رئيس بربادم. فغادر اسطول آخر هرمز ليدعم الاسطول الاول والمكون من ٨ سفن و٤٠٠ جندى تحت قيادة سيماؤ دا كنهاSimao da Cunha اخو الحاكم العام. وفى هذه الاثناء تلقى رئيس بربادم امدادات هي ٦٠٠ جندي من ايران.

بعد وصول الاسطول البرتغالى الى البحرين تحت قيادة سيماؤ دا كنها اقترح رئيس بربادم مصالحة البرتغاليين على أساس بانه لا يريد الحرب معهم وان كل ما يريده هو خروجه من البحرين الى ايران مع عائلته وثروته فقط. طمع البرتغاليون فى ثروة بربادم فحاصروا القلعة وهاجموها بالمدفعية واسقطوا جزءا من حائطها ورغم ذلك فشل البرتغاليون فى اقتحام القلعة بسبب النيران التى وجهت اليهم من قبل الرماة وهم يحاولون اجتياز الخندق. نفد البارود لدى البرتغاليين فلم يستطيعوا التقدم الى القلعة. اوقف البرتغاليون القتال لكنهم استمروا فى الحصار فى حين

ارسلوا سفينة الى هرمز لجلب مزيد من البارود.

فى هذه الاثناء لقى حوالى ١٠٠ جندى برتغالى حتفهم بسبب الحر الشديد ومرض ٢٠٠ منهم وعادت السفينة بالبارود بعد ١٦ يوما لكن الجنود البرتغاليين كانوا فى وضع سىء ولم يكونوا قادرين على حمل السلاح. فعاد العشرات منهم الى السفينة بصعوبة لدرجة انهم لم يستطيعوا تحريك السفينة من المرسى دون مساعدة بعض الصيادين على الشاطىء. غادرت السفينة الى هرمز لكن توفى معظمهم اثناء السفر ومنهم سيماؤ دا كنها.

البرتغاليون والاتراك فى الخليج

أضعفت قوة البرتغاليين فى المحيط الهندى حكم المماليك مما أدى الى الاحتلال العثمانى لكل من مصر وسوريا. فاحتل الاتراك فى ١٥١٦م و١٥١٧م كلا من دمشق وحلب والاسكندرية. واحتل السلطان سليمان بغداد فى ١٥٣٤م واحتل جيش تركى البصرة فى ١٥٤٥م ووصل الى الخليج العربى.

حاول الاتراك فى ١٥٣٨م ثم فى ١٥٤٦م طرد البرتغاليين من المحيط الهندى لكن محاولاتهم فشلت. رغم ذلك استمر الصراع بين الاتراك والبرتغاليين للسيطرة على الخليج العربى بين الخمسين والستين من القرن السادس عشر.

فى ١٥٥١م غادر امير البحر العثمانى الشهير بيرى بك Piri Bey ميناء السويس وابحر عبر البحر الاحمر وهاجم واحتل مسقط ثم حاول احتلال هرمز لكنه فشل فى ذلك. وعندما علم بوجود اسطول برتغالى واقترابه من اسطوله لجأ الى البصرة. وحاول فيما بعد ان ينزل الى البحرين ولكنه كاد ان يفقد سفينته فى هذه المحاولة فخرج من مياه الخليج ووصل الى البحر الاحمر. وعندما عاد الى مصر ضرب عنقه عقوبة لفشله.

فى ١٥٥٣م وصل مراد بك الى البصرة برا وجمع بقية سفن بيرى بك وابحر الى البحرين لكن البرتغاليين أغرقوا سفينتين تركيتين واسروا سفينة ثالثة. واضطر مراد بك للعودة الى البصرة.

فى ١٥٥٤م غادر اسطول تركى البصرة وفيه ١٥ سفينة تحت قيادة سيدى على وطرد هذا الاسطول البرتغاليين من مضيق هرمز. واضطر سيدى على الى ان يدخل المعركة مرة ثانية حول مسقط حيث فقد نصف اسطوله وفر الى الهند ومعه ٦ سفن فقط. ثم سافر الى تركيا عن طريق البر.

فى ١٥٥٩م وصل اسطول تركى وفيه سفينتان (غاليون) و٧٠ سفينة بالمجاديف الى شواطىء البحرين وحاصر الاتراك القلعة ب ١٢٠٠ جندى حيث كان حاكم الجزيرة هو رئيس مراد. أرسل البرتغاليون اسطولا من هرمز تحت قيادة الفارو دا سلفيرا Alvaro da Silveira

وحاصر الاسطول البرتغالى الاسطول التركى. خرج الحاكم رئيس مراد من القلعة مع ٣٠٠ من الجنود وقاتل الاتراك وانضم الى صفوف البرتغاليين وطارد الاثنان الجيش العثمانى داخل الجزيرة. لكن الاتراك نصبوا كمينا للبرتغاليين خلف النخيل وقتلوا عددا كبيرا منهم بما فيهم الفارو دا سلفيرا. وبمساعدة النيران الموجهة من سفنهم حاصر البرتغاليون الاتراك على الشاطىء ولم يسمحوا لهم بالانسحاب الى سفنهم الا بعد ان سلموا اسلحتهم وذخائرهم وعددا من الاسرى وغرامة قدرها ١٠,٠٠٠ دوكات.

القلعة البرتغالية

لا يذكر المؤرخون البرتغاليون للقرن السادس عشر كيف او متى اسس البرتغاليون قلعة فى البحرين لكن الخرائط البرتغالية لبداية القرن السابع عشر تورد قلعتين احداهما فى جزيرة البحرين والثانية فى جزيرة المحرق.

وفى خريطة لعام ١٥٦٣م لمنطقة الخليج العربى كلها تشير الى تواجد القلعتين بعلامتين صغيرتين وتجمع التقارير على ان البرتغاليين احتلوا «مدينة محصنة» على وجه السرعة وانهم لم يحتاجوا الى اقتحام اية قلعة فيها لفرض السيطرة على الجزيرة.

ولو كانت اية قلعة متواجدة على الجزيرة لكان مكرم (السلطان مقرن) قد لجأ اليها ليقاوم البرتغاليين فقد كان عنده الوقت الكافى (٦شهور) لتنظيم الدفاعات ولكان قد قام باصلاح القلعة لهذا الغرض لو كانت متواجدة.

وتأتى اول اشارة الى القلعة فى جزيرة البحرين حسب المصادر البرتغالية فى التقرير الذى وضع عن تمرد عام ١٥٢٩م اذ يصف المؤرخ البرتغالى جووو دى باروس القلعة بالكلمات التالية:ـ

«ان القلعة التى حوصر فيها بربادم تقع على هضبة فوق الميناء تحميها جزيرة صغيرة حيث يسكن الصيادون وتوجد ابراج مربعة الشكل فى اطراف القلعة وعددها ١٨ برجا وهى مصنوعة من الحجر وحولها خندق وعند المدخل جسر متحرك فوق الخندق» وعلى أى حال فان الحفريات التى تجرى فى قلعة البحرين وعراد يمكن لها ان تلقى الضوء على صحة هذا الوصف.

ان الابراج والجدران الخارجية للقلعة البرتغالية اى قلعة البحرين لا يمكن ان يتم بناؤها قبل النصف الثانى للقرن السادس عشر اذ كانت الابراج من طراز ايطالى ولم يستخدم البرتغاليون هذا الطراز الا فى النصف الثانى لذلك القرن. وتوجد نقوش فى جزيرة جدة ترجع الى عام ١٥٦١م وهذا على الارجح هو تاريخ بناء القلعة.